مـا أجـملَ الـقـمـر

• كـــارين صـــادر*

ما بين القلم والورقة، كانت حياتُها مُغْلقةً: تَقْرأ ما يَكْتبه الآخرون لتعيشَ ما يَكْتبون، وتَحْلم بما يحقّقون في الحقيقة أو على الورق.

كان كلُّ كتاب تحتويه يداها كوكبًا، وكلُّ صفحة من صفحاته زورقًا أو طائرةَ ورق.

هكذا كانت هزار تُمْضي الساعاتِ والأيّامَ على مذبح طاولةٍ في إحدى المكتبات العامّة، تَحْلم كلَّ يومٍ بحلم أكبر.

وذاتَ يوم، كانت فيه كدأبها تَحْلم على الورق، اقتَرَبَ من طاولتها شابٌّ أنيقُ الهندام والمظهر، حلوُ المبسم، وسألها أن تعطيه جزءًا من وقت استراحتها، فوافقتْ دون أن تسأل.

هبطا معًا الأدراجَ إلى استراحة المكتبة، وكانت لا تزال تحت تأثيرِ ما تقرأ.

نظر الشابُّ إلى وجهها طويلاً، ثم قال لها:

ـ ما أروع هذا الوجه المدوَّر كالقمر.

احمرّت وجنتاها، ونظرتْ نحو الأسفل بخفر، فتابع:

ـ لم تتغيَّري منذ سبع سنوات. فما زلتِ تفضّلين الألوان ذاتَها، حمرةَ الشفاه ذاتها، وتسيرين بالخطوات ذاتها.

ـ لكنّي لا أذكر أنّنا التقينا أبدًا!

ـ بلى، ألم تنتسبي منذ سبع سنوات مضت إلى المركز الثقافيّ الفرنسيّ؟ لقد التقيتُكِ هناك أولَ مرّة وأنت تسجّلين اسمَكِ. ألم تلتحقي بكليّة الآداب؟ لقد كنتُ معكِ حيث تدرسين. ألستِ من روّاد هذه المكتبة؟ كنتُ ومازلتُ ارتادها، وأجلس قريبًا منكِ حيث تجلسين. كلّ هذا ولا تَذْكرين؟!

تساءلتْ هزار: أهذا واقع أم حلم؟ أهو شخص حقيقيّ أَمْ فرّ من إحدى القصص؟

وأحسَّت بنفسها عاجزةً عن فهم ما يحدث، فاقتربتْ منه أكثرَ فأكثر، وبدت ملامحُه أغربَ فأغرب.

ومع هذا فقد ارتاحت إليه، وتمنَّت لو يخبرها عن ذاتها الماضية وذاتها الحاضرة. لكنّه صمت، ثم تاه من جديد في دوائر وجهها وقال:

ـ ما أجملَ هذا الوجهَ المدوَّرَ كالقمر.

فابتسمتْ، ثم علّقت:

ـ لا أظنّ نفسي بهذه الروعة، فأنا فتاة عادية جدّاً، وليس في جمالي ما يَبْهر؛ فلا تحدِّقْ بي هكذا.

لكنّه حدّق وحدّق أكثر، ثم أجاب:

ـ أعرفكِ منذ سنوات بعيدة، وأحسستُ مذ رأيتُكِ أنّي أعرفُكِ منذ بدء الخليقة. غير أنّي لم أكن أجرؤ على الاقتراب منكِ خوفًا من الصدود. ففضّلتُ أن أبقى بعيدًا في الواقع عنك، قريبًا في أحلامي إليكِ.

ضحكتْ هزار عاليًا لِما يقول: ألأنّها وجدتْ فارسَ أحلامها يقترب منها بعد أن فكّ أغلالَ الخيال، وحطَّم قيود الحروف، وجاءها مجسَّمًا؟ أم لأنّها سكرتْ بنشوى نصرٍ لم تسعَ إليه ولم يُعْيِها طلبُه؟

---

* ـ طالبة دكتوراه في الأدب العربيّ، في الجامعة اللبنانيّة.

لم تكن تدري، ولكنّها فرحتْ كثيرًا، وضحكتْ أكثر. ففرح لفرحها وضحك لضحكها.

هنا أحسّت هزار باهتمامها به، وطلبتْ أن تتعرّف إليه أكثر. فسألتْه عن اسمه، ونوعِ دراسته، ومهنته الحاليّة. وأَعْلمته بأنّها سُرّت بلقائه، فأجابها بأنّ سروره حتمًا هو الأكبر.

ثم صعدا معًا وجلسا على الطاولة نفسها، وأَمْسك كلٌّ منهما بكتابه يَنْظر إليه بعينين شاردتيْن تقفزان بين السطور والصفحات.

ولمّا حان وقتُ المغادرة ودّعتْه على أمل أن يُشرِقا معًا في صباح اليوم التالي.

◆ ◆ ◆

كانت إشراقةُ هزار أبكر، وخطواتُها المتمردة على إرادتها أسرع. حين وصلتْ، صعدت الأدراجَ نحو القاعة وثبًا، وجلستْ على الطاولة نفسها، وحملت الكتابَ نفسه، وجعلت تقرأ من غير أن تفهم. فراحت ترمي بالكتاب يمينًا وشمالاً، من غير أن تحسّ الرغبة السابقة في متابعة القراءة.

شعرتْ بمقت شديد لهذا الكتاب الذي كان حتى البارحة من أروعِ ما قرأتْ. فهزئتْ بالأبطال وبسلوكهم غير المنطقيّ، وبأحداث القصة المبتذلة.

هبطتْ إلى الاستراحة وقد نفد صبرُها، وجلستْ قرب النافذة تَرْقب الطريقَ بعين والساعةَ بأخرى.

لكنّه لم يأت. فتساءلتْ: أكان ما كان حلمًا؟ ألم يجلسا هنا؟ ألم يتعارفا، ويتحادثا، ويتواعدا هنا؟

عادت من جديد شاردةً نحو القاعة، تقلّب في الكتاب حيرانةً، قلقةً، تتأرجح الدمعةُ في عينيها.

وفجأةً تراءت لها جملةٌ مدوّنةٌ بقلم رصاص على أولى صفحات الكتاب، فقرأتْ:

«كم أنتِ جميلةٌ يا هزار! انتظريني. سوف أتأخر.»

أعادت هزار قراءةَ هذه الكلمات مئاتِ المرات قبل أن تمحوَها، وتأكدتْ من أنه استيقظ أبكرَ، وسار بخطواتٍ أسرعَ، ومن أنّه واقعٌ يتحرك، ويحبّها أكثرَ من كلّ أبطال القصص.

ضمت الكتابَ إلى صدرها طويلاً، ثم فتحتْه وعادت تنتظر وتقرأ.

زحلة